

القول الشريد

في بيان تحقيق التوحيد

تأليف

أبي عبد الرحمن عبد الله بن صالح العبيدان

طبع على نفقة بعض المحسنين في

دولة الكويت ودولة قطر ودولة الإمارات غفر الله لهم ولوالديهم



القول الشريد

في بيان تحقيق التوحيد

القول المشيد

في بيان تحقيق التوحيد

تأليف

أبي عبد الرحمن عبد الله بن صالح العبيلان

م٢٠١٦ / ٥١٤٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة



إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ
مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ.

أما بعد:

اعلم رحمك الله أن قول النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا
بِغَيْرِ حِسَابٍ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١)

أن الأصل الجامع الذي تفرعت عنه تلك الأفعال والخصال هو اعتماد القلب الذي هو نهاية تحقيق التوحيد فهو الحامل لهم على قوة توكلهم على الله، وتفويض أمورهم إليه، وثقتهم به، ورضاهم عنه، وصدق الالتجاء إليه، وإنزال حوائجهم به ﷺ، ومن المعلوم أن ذلك يشمل جميع مصالح العبد في الماضي والحاضر والمستقبل فلا تتم ولا تكمل إلا بالله وفضله وإحسانه، وقد

(١) رواه البخاري: (٦١٠٧)، ومسلم: (٢٢٠).

بيّن الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ۗ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف ٢٦-٢٨].

فجعل إبراهيم ﷺ كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جارياً مجرى لا إله، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ جارياً مجرى قوله إلا الله، فكان مجموع قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ جارياً مجرى قوله لا إله إلا الله، ثم بيّن تعالى أن إبراهيم ﷺ جعل هذه الكلمة: ﴿بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم.

والمقصود أن كمال التوحيد وتحقيقه لا يحصل إلا بأن يكون توجه العبد إلى الله في جميع شؤونه كما قال الخليل ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قال شيخ الإسلام ﷺ: «لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً إليها، ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب؛ فكان إسلام الوجه، وإقامته، وتوجيهه، مستلزماً لإسلام القلب، وإقامته، وتوجيهه. وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كله لله»^(١) أ.هـ.

وليس ذلك قاصراً على ترك طلب الرقية وترك الكي بل هو

(١) أنظر النبوات: (٢/٢٥٣).

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّا وَعَدَلَهُ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

لذا رأيت بيان ذلك بشيء من التفصيل ليكون العبد على بصيرة ومعرفة بالسبيل الذي يكمل به توحيده، ويبلغ به الدرجات، ويسلم من الوقوع فيما ينقصه، أو يقدح فيه.

سائلا الله الحليم الكريم البر الرحيم أن يجعله حجة لي لا علي، وأن ينفع به من اطلع عليه أو سمعه أو بلغه إنه سميع عليم والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الرحمن عبد الله بن صالح العبيلان

١١ / جماد الآخرة / ١٤٣٧ هـ

[١] باب بيان أنه لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقوله ﷺ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصفات: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَهَكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله ﷺ: ﴿إِلَهَكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، وقوله ﷺ: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو مِنْ اللَّيْلِ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...»، إلى أن قال: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنْبِتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ»^(١).

والإله الحق بإجماع السلف هو المعبود بحق، المستحق للعبادة وحده دون غيره، وقد قامت كلمة التوحيد في الإسلام على معني الألوهية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فَقَوْلُهُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» فِيهِ إِثْبَاتُ انْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَالْأُلُوْهِيَّةِ تَتَضَمَّنُ كَمَا لِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، ففِيهَا إِثْبَاتُ إِحْسَانِهِ إِلَى الْعِبَادِ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَالُوهُ، وَالْمَالُوهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَكَوْنَهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَحْبُوبُ غَايَةَ الْحُبِّ، الْمَخْضُوعُ لَهُ غَايَةَ الْخِضُوعِ، وَالْعِبَادَةُ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذَّلِّ»^(٢). أ.هـ.

واسم الإله يختلف في معناه عن اسم الرب في كثير من النواحي، فالرب معناه يعود إلى الانفراد بالخلق والتدبير والملك، أما الإله فهو المستحق للعبادة المألوه الذي تعظمه القلوب وتخضع له وتعبد عنه رضا ومحبة، أما من يجعل توحيد الألوهية هو إفراد الله بالخلق فقد سلك طريق المتكلمين والجهمية، وقد بين الله تعالى أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ويعتقدون أن الله خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ مَعَهُمْ﴾

(١) رواه البخاري: (٦٩٥٠)، ومسلم: (١٨٤٤).

(٢) أنظر الفتاوى: (٢٤٩ / ١٠).

[العنكبوت: ٦١]، لكنهم كانوا يشركون في توحيد الألوهية، وبذلك كانوا كافرين قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٤-٥٥].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالْأَسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ.»^(١)

قال ابن القيم رحمته الله: «وهاهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما:

أحدهما: محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فان المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحب الله الا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذ نداء من دون الله وهذه محبة المشركين. وبقي قسم خامس: ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية وهي ميل

(١) رواه أبو داود: (١٤٩٥).

الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لا تدم الا إن أهدت عن ذكر الله وشغلته عن محبته كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَأَنلَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا نُلَهُمَّ فِتْرَةً وَلَا بِعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]» (١) أ.هـ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «واعلم رحمك الله أن تحقيق التوحيد: هو تحقيق اخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتا إلى غير الله ولا ناظرا إلى ما سواه لا حباله ولا خوفا منه ولا رجاء له بل يكون القلب فارغا من المخلوقات خاليا منها لا ينظر اليها الا بنور الله فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشى فيحب منها ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله ويوالي منها ما والاه الله ويعادى منها ما عاداه الله ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله فهذا هو القلب السليم الحنيف» (٢) أ.هـ.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان معنى الألوهية والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَجْعَلُ لِلْأَلِهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) أنظر الجواب الكافي: (ص: ١٣٤).

(٢) أنظر مجموع الفتاوى: (١٠/٢٢٣).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الفائدة الثانية: أن إخلاص الدين لله هو أصل العبادة.

الفائدة الثالثة: أن أصل العبادة هي المحبة، والشرك فيها أصل الشرك وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥]، في الطاعة لها والتعظيم لها.

الفائدة الرابعة: أن التوحيد أصل، والعبودية فرع، والتوحيد شجرة والعبودية ثمرة، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر.

الفائدة الخامسة: بيان أنه لما كان التوحيد أساس جميع الحسنات وأعظمها كان المنع منه والأمر بالشرك أعظم الكبائر قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ١٣].

الفائدة السادسة: أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للأمر محبة وخضوعاً، وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرَّ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

الفائدة السابعة: بيان أن العبادة مبنها على السنة والإتيان.

الفائدة الثامنة: ضلال من فسر التوحيد الذي دعا إليه القرآن بإفراد الله بالخلق.

الفائدة التاسعة: تحقيق التوحيد.

الفائدة العاشرة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُكُم بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

[٢] باب بيان أنه لا رب إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ. ثُمَّ هَدَىٰ ﴿ طه: ٤٩-٥٠ ﴾ .

دلت الآية عن كل معاني الربوبية في معنيين جامعين:

الأول/ منها هو إفراد الله بتخليق الأشياء وتكوينها وإنشائها من العدم حيث أعطى كل شيء خلقه ووجوده.

والثاني/ هو إفراد الله بتدبير الأمر في خلقه وهدايتهم إلى قيام شؤونهم وتصريف أحوالهم والعناية بهم، ويقول تعالى: ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايِنَةِ اللَّهِ أُوتِيكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿ الزمر: ٦٣ ﴾ .

الشرك نوعان: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية.

وجماع الأمر: أن الشرك نوعان:

شرك في ربوبيته: بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فبين سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالاً، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يعينونه على ملكه، ومن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً، فقد انقطعت علاقته.

وشرك في الألوهية: بأن يدعى غيره دعاء عبادة، أو دعاء مسألة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] (١) أ.هـ.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سَيِّدُ الْإِسْتِعْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت قال ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» (٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهده وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله» (٣) أ.هـ.

(١) أنظر اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ٧٩).

(٢) رواه البخاري: (٦٣٠٦).

(٣) انظر الفتاوى: (١/ ٢٧).

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

والله سبحانه غنى، حميد، كريم، واجد، رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانا والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه، ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما، وإن كان ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله. فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم، وسماع كلامهم، ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته، أو جماله أو كرمه، فهو يجب أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ولو بالدعاء أو الثناء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله، فأجناد الملوك، وعبيد المالك، وأجرأ الصانع، وأعوان الرئيس، كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدم، إلا أن يكون قد عُلِمَ وأدب من جهة أخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل، وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا.

إذ تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراعِ العدل، فإذا دعوته؛ فقد دعوت مَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ.

والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا ليتنفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة.

وتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم الله لا لرجائهم، وكما لا تحفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ مُجَزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ [الليل: ١٧-٢٠]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لُوجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «وجماع هذا أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مرید لها كما ينبغي، فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالماً بمصلحتك، ولا قادراً عليها، ولا مریداً لها، والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم، كما في حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب». (١) أ.هـ.

(١) أنظر الفتاوى: (٥/ ١٦).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان معنى الربوبية، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

الفائدة الثانية: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأُمُورَ فَيَسْئَلُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

الفائدة الثالثة: أن الشرك كما يكون في الألوهية، يكون في الربوبية والإشارة إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعَزَّ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَرَزَّ وَرِزٌّ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

الفائدة الخامسة: بيان أن الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد.

الفائدة السادسة: بيان كيف يكون كمال التوحيد في الربوبية.

الفائدة السابعة: بيان أن تعلق العبد بما سوى الله ﷻ مضره عليه.

الفائدة الثامنة: بيان المنهج الرباني في التعامل مع الخلق.

[٣] باب بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله ولا علم إلا بالله

وقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله ﷺ: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهَا بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحریم: ٣]، وقول ﷺ: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقول ﷺ: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله تعالى:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّفَقَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢]، وفي الآية إشارة إلى أن التعليم والتسهيل إنما هو من الله تعالى لا من المعلمين والحافظين، وقد علم آدم ﷺ الأسماء ووقفه لتعلمها، وسهله بإذنه وعلم داود ﷺ صنعة الدرع كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وعلم عيسى ﷺ علم الطب كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وعلم الخضر ﷺ العلم اللدني كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وأعلم: «أن شرف العلم تابع لشرف معلومة لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومة إلى سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه في تحقق ذاته وأينيته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلولة وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول الى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بها سواء فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه اجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيما وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسى ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام اخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذي أعطاه إياه خالقها وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها قال الله تعالى: ﴿وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلا والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرتة والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلاح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته». (١) أ.هـ.

(١) أنظر مفتاح دار السعادة: (١/ ٨٦).

ومراتب العلم مرتبتان:

إحدهما: العلم بالله / فأما العلم به ﷺ فخمس مراتب العلم بذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به.

والثانية: العلم بدينه / وهو مرتبتان:

إحدهما: دينه الأمري الشرعي وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه وقد دخل في هذا العلم، العلم بملائكته وكتبه ورسوله.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان فضل العلم بالتوحيد على غيره، وقوله تعالى:
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

الفائدة الثانية: بيان الغاية والحكمة في إنزال الكتب وقوله تعالى:
﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾
[إبراهيم: ٥٢].

الفائدة الثالثة: بيان فضل العلم على العمل.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

الفائدة الخامسة: بيان الإشارة إلى قوله ﷺ: «مَنْ أَقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ أَقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السُّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»^(١) ومنه ما يسميه بعض المعاصرين علم أبراج النجوم.

الفائدة السادسة: الإشارة إلى قول يحيى بن عمار قال: «العلوم خمسة:

فعلم هو حياة الدين وهو علم التوحيد.

وعلم هو غذاء الدين وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث.

وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود.

وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث.

وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه»^(٢). أ.هـ

(١) رواه أبو داود: (٣٩٠٧)، وابن ماجه: (٣٧٢٦)، وأحمد: (٢٨٤١).

(٢) أنظر مجموع الفتاوى: (١٠/١٤٥-١٤٦).

[٤] باب بيان أنه لا خالق إلا الله

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِ تُوفَّكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَىٰ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ»^(١).

فالخالق هو الذي أوجد جميع الأشياء بعد أن لم تكن موجودة، وقدر أمورها في الأزل بعد أن كانت معدومة، ويكون معني الخالق أيضا هو الذي

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد: (ص: ٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة: رقم ٣٥٧ (١/ ١٥٨).

ركب الأشياء تركيباً، ورتبها بقدرته ترتيباً.

فمن الأدلة على معنى الإنشاء والإبداع وإيجاد الأشياء من العدم قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِذَا تُوَفَّوْكُمْ ﴿٣﴾ [فاطر: ٣].

ومن الأدلة على معنى التركيب والترتيب الذي يدل عليه اسمه الخالق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

قال ابن القيم رحمته: «براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴿٤﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴿٨١﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ ﴿٤﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ [الحج: ٦]، ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى الله الملك الحق ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. (١) أ.هـ

قال شيخ الإسلام رحمته الله: « أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَمَلِكُهُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ وَلَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ؛ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ؛ وَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ؛ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مِنَ الْأَعْيَانِ وَصِفَاتِهَا؛ وَحَرَكَاتِهَا؛ فِيهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ؛ مَقْدُورَةٌ لَهُ؛ مُصَرَّفَةٌ بِمَشِيئَتِهِ، لَا يُخْرِجُ شَيْءٌ مِنْهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمُلْكِهِ؛ وَلَا يُشْرِكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُهُ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَالْعَبْدُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا يَسْتَعِينِي عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَمَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ؛ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، فَإِذَا ثَبَّتَتْ هَاتَانِ «الْمُقَدِّمَتَانِ»، فَتَقُولُ: إِذَا أُلْهِمَ الْعَبْدُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الْهُدَايَةَ وَيَسْتَعِينَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، أَعَانَهُ وَهَدَاهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ سَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا خَذَلَ الْعَبْدَ فَلَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ؛ وَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَكَلَّ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، فَيُوَلِّهِ الشَّيْطَانَ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ، وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكُلُّ مَا يَكُونُ فِي الْوُجُودِ هُوَ بَقْضَاءِ

(١) أنظر الفوائد: (ص: ٦).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

اللَّهُ وَقَدَرِهِ؛ لَا يُخْرِجُ أَحَدٌ عَنِ الْقَدْرِ الْمُقْدُورِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ مَا خُطَّ لَهُ فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ»^(١) أ.هـ.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]

الفائدة الثانية: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

الفائدة الرابعة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى أن السمع والبصر والفؤاد أسباب تحصيل التوحيد وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٩].

الفائدة السادسة: بيان أن دلائل التوحيد في دلائل الآفاق ودلائل الأنفس.

(١) أنظر مجموع الفتاوى: (٢٣٦/٨).

أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»، فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعْتُ أُمَّيْ خَشَفَ قَدَمِي فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ - فَاعْتَسَلْتُ وَلَبَسْتُ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - قَالَ - فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ - قَالَ - قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشُرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا - قَالَ - قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجِيبَنِي أَنَا وَأُمَّيْ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُجِيبَهُمْ إِلَيْنَا - قَالَ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ وَأُمَّهُ - إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ»، فَمَا خَلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي». (١)

* وأعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [ص: ٥٠]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتهه فيها بغيره وأعطى كل عضو شكله وهيئته وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(١) رواه مسلم: (٦٥٥١).

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والملاك وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتمام فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وفي قوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قول النبي ﷺ: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ»^(١)؛ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، نفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى عن أهل النار: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٢) من دون الله فأهدوهم إلى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصافات: ٢٢-٢٣]، إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة

(١) رواه مسلم: (٢٠٤٤).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام طلب التعريف والبيان والتوفيق.

وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نقول كل يوم وليلة عدة مرات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى أن الله تعالى ما ترك الناس سدى، بل أرشدهم إلى طريق الحق بإنزال الكتب وإرسال الرسل.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى أن تكذيب واحد من الرسل تكذيب للجميع لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد.

الفائدة الثالثة: بيان أن الهداية بيد الله فعلى العبد أن يسأل الله الهداية وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَيْتُ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥].

الفائدة الرابعة: التنبيه إلى تمام الهداية وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿يوسف: ١٠١﴾.

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿المجادلة: ١١﴾.

[٦] باب بيان أنه لا حول ولا قوة إلا الله

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ بِنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

[الكهف: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[البقرة: ٢٥٩]، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَلَا حَوْلَ لِلْعَبْدِ وَلَا قُوَّةَ لَهُ - بَلْ وَلَا لِلْعَالَمِ أَجْمَعِ - إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ. وَأَنَّهُ لَا تَتَحَرَّكَ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[يس: ٨٣]، وهو سبحانه وكيل المؤمنين الذين جعلوا اعتقادهم في حوله وقوته، وخرجوا من حولهم وطولهم وأمنوا بكمال قدرته، وأيقنوا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فركنوا إليه في جميع أمورهم، وجعلوا اعتمادهم عليه في سائر حياتهم، وفوضوا إليه الأمر قبل سعيهم، واستعانوا به حال كسبهم، وحمدوه بالشكر بعد توفيقهم، والرضا بالمقسوم بعد ابتلائهم، وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿[آل عمران: ١٧٣]، وقال سبحانه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِعَالٍ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿[غافر: ٤٤-٤٥].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ

وَجَعَلْتُ الصُّحُفَ»^(١).

وكما لها أن يعرف العبد أن لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله فعند ذلك يستعين بالله ﷻ في تحصيل كل المطالب.

قال ابن القيم رحمته الله: «والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولاً هل هو طاعة لله أم لا فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة وحينئذ يصير طاعة فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو معان عليه أم لا فإن لم يكن معاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه وإن كان معاناً عليه بقي عليه نظر آخر وهو أن يأتيه من بابه فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئاً فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه وهي معنى قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: ٥-٦]. فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة ومنهم من يكون له نصيب من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصيبه من: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، معدوم أو ضعيف فهذا مخذول مهين محزون ومنهم من يكون نصيبه من: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قويا ونصيبه من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ضعيفاً أو مفقوداً فهذا له نفوذ وتسلط وقوة ولكن لا عاقبة له بل عاقبته أسوأ عاقبة ومنهم من يكون له نصيب من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً كحال كثير من العباد»^(٢) أ.هـ

(١) رواه الترمذي: (٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أنظر إعلام الموقعين: (٢/ ٢٠٠).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن هذه الكلمة كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع وكثير من الناس يقولها عند المصائب، بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعا لا صبورا.^(١)

الفائدة الثانية: بيان أنه لا يسوق الخير إلا الله ولا يصرف السوء إلا الله.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا مَمْلِكُونَ كَشَفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

الفائدة السادسة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

الفائدة السابعة: بيان أن الشدائد لا تدفع بمثل التوحيد.

(١) انظر الفتاوى الكبرى (٢/ ٣٩٠).

[٧] باب بيان أنه لا يطلب النصر إلا من الله

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

قال ابن القيم: «مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي فُهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي فُهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله فسمه أزدًا الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور»^(١). أ.هـ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِوْنَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

دلت الآية على الأمر بتجريد التوحيد والحث على الطاعة، والتخدير عن

(١) أنظر مدارج السالكين: (١/ ٤٥٦).

المُعْصِيَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَنْ مَنْ اتَّقَى مَعَاصِيَ اللَّهِ تَعَالَى نَصَرَهُ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ.

فِيحْضُلُ مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَتِينَ، أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَقَدْ فَازَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يَفُوزُ بِسَعَادَةٍ لَا شِقَاوَةَ مَعَهَا وَبِعِزٍّ لَا ذُلَّ مَعَهُ، وَبِصَبْرِ غَالِيًا لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ، وَأَمَّا مَنْ أَتَى بِالْمُعْصِيَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَخْذُلُهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ فَقَدْ وَقَعَ فِي شِقَاوَةٍ لَا سَعَادَةَ مَعَهَا، وَذُلٌّ لَا عِزَّ مَعَهُ، وَالشَّرْكَ بِاللَّهِ أَكْبَرُ سَبَابِ الْخِذْلَانِ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا نَنْصُرُ إِلَّا مَن عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَنْصُرُ إِلَّا مَن عِنْدَ اللَّهِ﴾، الْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ تَوَكُّلُهُمْ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَهَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ إِيْمَانَ الْعَبْدِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا عِنْدَ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ وَالْإِقْبَالِ بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى مَسَبَبِ الْأَسْبَابِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَيُغِئ أَلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فالعزير: إشارة إلى كمال قدرته، والحكيم: إشارة إلى كمال علمه.

فلا يخفى عليه حاجات العباد ولا يعجز عن إجابة الدعوات، وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

اعلم أنه تعالى لما بين أن الكثرة لا تنفع، وأن الذي أوجب النصر ما كان إلا من الله ذكر أموراً ثلاثة:

أحدها: إنزال السكينة، والسكينة ما يسكن إليه القلب والنفس، ويوجب الأمانة والطمأنينة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، المراد إنزال الملائكة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والمراد من هذا التعذيب

قتلهم وأسرههم وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

الفائدة الثانية: بيان أن مدار النصر والظهور بالعلم النافع، والعمل الصالح، وجوداً وعدمًا.

الفائدة الثالثة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

الفائدة الرابعة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

[٨] باب بيان أنه لا يطلب الرزق إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١٤٤]،
وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، وقوله تعالى:
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقِنُونَ﴾ [يونس: ٣١].

اعلم أن الرزق فإنه إنما يحصل من السماء والأرض، أما من السماء فبنزول الأمطار الموافقة وأما من الأرض، فلأن الغذاء إما أن يكون نباتاً أو حيواناً، أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض وأما الحيوان فهو محتاج أيضاً إلى الغذاء، ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيواناً آخر وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها إلى النبات وثبت أن

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

تولد النبات من الأرض، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس إلا الله ﷻ، فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا من الله تعالى، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحداً سوى الله تعالى ولا يرجون أحداً غير الله تعالى، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى وقال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَصْبِحُ الْقَوْمَ بِالنِّعْمَةِ، أَوْ يُمَسِّيهِمْ بِهَا، فَيُصْبِحُ بِهَا قَوْمٌ كَافِرِينَ يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا»^(١)، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا

(١) رواه الطبري في تفسيره: (٢٣ / ١٥٥) والحميدي في مسنده: (٩٧٩) والطحاوي في شرح مشكل الآثار: (٢١٦) وأصله في الصحيح.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الزمر: ٤٩﴾،
 وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
 إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿النحل: ١١٤﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي
 آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
 خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿الإسراء: ٧٠﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ
 عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿ص: ١٣٢﴾، وقوله تعالى:
 ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
 اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهًا
 تَرْجِعُونَ ﴿العنكبوت: ١٧﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ أَأَنْتُمْ
 تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿الواقعة: ٦٣-٦٤﴾، وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ
 رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
 لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿الزخرف: ٣٢﴾.
 وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله:
 ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قال: «قسم بينهم معيشتهم في الحياة
 الدنيا كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم فتعالى ربنا وتبارك: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
 فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ قال: فتلقاه ضعيف الحيلة عيبي اللسان وهو مبسوط له
 في الرزق وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه ليتخذ بعضهم
 بعضا سخريا»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَقِيرٌ ﴿القصص: ٢٤﴾.

(١) أنظر الدر المنثور: (٧/ ٣٧٥).

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمان ليال ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر وخرج إليها حافيا فما وصل حتى وقع خف قدمه».

وفي قوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قال: «من طعام». (١)

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنْ اللَّهِ صَارَ عَبْدًا لِلَّهِ فَقِيرًا إِلَيْهِ وَإِنْ طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ صَارَ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ فَقِيرًا إِلَيْهِ». (٢) أ.هـ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ وَجَدَكَ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٍ أَيُّ رَبِّ عَلَقَةٍ أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٍ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ أَيُّ رَبِّ أَدَكَرُّ أَمْ أَنْتَى أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ فَمَا الرِّزْقُ فَمَا الْأَجَلُ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ». (٣)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدًا يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقِهِ هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ مِنَ الْحَلَالِ وَتَرَكِ الْحَرَامِ». (٤)

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا السِّرُّ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ». (٥)

(١) أنظر الدر المنثور: (٧/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٢) أنظر رسالة العبودية: (ص: ١٤).

(٣) رواه البخاري: (٣١٢-٦٢٢٢)، ومسلم: (٦٩٠٠).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط: (٩٠٧٤)، والحاكم: (٢٣٣٤)، والبيهقي في الكبرى: (١٠٧٠٧).

(٥) رواه أحمد: (٢٢٤٦٦)، والفظ له، وابن ماجه: (٤٠٢٢)، والحاكم: (١٨١٤)، والطبراني في الكبير:

(١٤٤٢).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاصَلُوا إِلَّا أَجْرَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ، وَكَانُوا فِي كَنْفِ اللَّهِ ﷻ». (١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَعْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفِرَاقُ». (٢)

عن سعيد بن أبي هلال أن عيسى بن مريم كان يقول: «من يظن أن حرصه يزيد في رزقه فليزد في طوله أو في عرضه أو في عدد بنانه أو لغير لونه فإن الله ﷻ خلق الخلق فمضى الخلق لما خلق ثم قسم الرزق فمضى الرزق لما قسم فليست الدنيا بمعطية أحدا شيئاً ليس له ولا مانعة أحدا شيئاً هو له فعليكم بعبادة ربكم ﷻ فإنكم خلقتم لها». (٣) أ.هـ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال: «الرزق الطيب في الدنيا». (٤)

قال صاحب بحر الفوائد: «فَهُوَ تَعَالَى إِنَّمَا يُسْقِمُ عَبْدَهُ الَّذِي يُحِبُّهُ لِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الصَّحَّةُ، مَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ ضَعْفًا لَا يَحْتَمِلُ السَّقَمَ صَحَّحَهُ لِيَكُونَ لَهُ عَابِدًا، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَاكِعًا وَسَاجِدًا وَبِفَضْلٍ قُوَّتُهُ جَاهِدًا، فَيَكُونُ مَثَلًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمُقْبَلًا بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبُّهُ فَجَعَلَهُ نُصَبَ عَيْنِيهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا سَأَلَهُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا أَقْرَضَهُ وَأَسْقَمَهُ تَصَرَّعَ إِلَيْهِ، وَإِنْ صَحَّحَهُ مَثَلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يُصْلِحُ إِيَّانَهُ لِيُصْلِحَ لَهُ، يُدَبِّرُهُ بِعِلْمِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ خَبِيرٌ، وَعَلَى مَا

(١) رواه الطبراني في الكبير: (١١٢٩٥).

(٢) رواه البخاري: (٦٠٤٩).

(٣) أنظر أحاديث الشيوخ الثقات: رقم (٦٥٧ / ١) (٢٠).

(٤) أنظر تفسير الطبري: (٢٩٠ / ١٧).

يَشَاءُ قَدِيرٌ، فَهُوَ تَعَالَى يُحِبُّهُ لَهُ يَفْعَلُهُ بِهِ مَا يَصْرِفُ بِوَجْهِهِ إِلَيْهِ، وَيُقْبَلُ بِقَلْبِهِ عَلَيْهِ وَلِيَكُونَ فِي كُلِّ حَالٍ بَيْنَ يَدَيْهِ مَائِثًا عَنِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ مَائِثًا، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا إِلَيْهِ نَاطِرًا، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ لَهُ ذَاكِرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى مُحِبٌّ، وَعَلَيْهِ مُقْبَلٌ، وَلَهُ مُؤَثِّرٌ، وَإِلَيْهِ نَاطِرٌ، وَلَهُ ذَاكِرٌ، فَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ حَبِيبُهُ لَهُ كَمَا هُوَ لِحَبِيبِهِ، وَالْعَبْدُ لَا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، فَهُوَ تَعَالَى يَفْعَلُ بِهِ مَا يَرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَهُ تَعَالَى، اللَّهُ أَكْبَرُ الْكَرِيمُ اللَّطِيفُ الْعَلِيمُ» (١).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وَلَمْ يَقُلْ فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ.

الفائدة الثانية: بيان التنبية إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكُ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۗ وَيَكَافُكُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

الفائدة الثالثة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ وَعَلِمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

الفائدة الرابعة: بيان الإشارة إلى قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ حَمٍ» (٢).

(١) أنظر بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلا باذي: (ص: ٣٨٤).

(٢) رواه البخاري: (١٤٠٥)، ومسلم: (١٠٤٠).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

وقوله: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ حُمُوشٌ أَوْ خُدُوشٌ أَوْ كُدُوحٌ»^(١)، وقوله: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لثَلَاثَةٍ لِيَذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِيَذِي غُرْمٍ مُنْفِعٍ أَوْ لِيَذِي دَمٍ مُوجِعٍ»^(٢)، هذا المعنى في الصحيح.

وقوله: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفَى اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(٣)، وقال: «وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»^(٤)، فكره أخذه من سؤال اللسان واستشرف القلب.

الفائدة الخامسة: بيان الإشارة إلى حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكَلَّهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَهُ»^(٥).

الفائدة السادسة: بيان الإشارة إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ»^(٦).

- (١) رواه أبو داود: (١٦٢٦) والترمذي: (٦٥٠) واللفظ له، والنسائي: (٢٥٩٢)، وابن ماجه: (١٨٤٠).
- (٢) رواه أبو داود: (١٦١٤)، واللفظ له، والترمذي: (٦٥٣)، وابن ماجه: (٢١٩٨).
- (٣) رواه البخاري: (١٤٠٢).
- (٤) رواه البخاري: (١٤٠٤)، ومسلم: (٢٤٥٢) واللفظ له.
- (٥) رواه مسلم: (٤١٧٧).
- (٦) رواه أبو داود: (٣٥٨٢)، واللفظ له، والترمذي: (١٣٣٦)، وابن ماجه: (٢٣١٣).

[٩] بَابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا إِنْعَامَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ فَاللَّهُ ﷻ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالنِّعَمِ

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُفُّمَنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ [الإسراء: ٨٣] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦] ، وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم: ٤٩] .

أعلم أن النعم كلها من الله تعالى وحده نعم الطاعات ونعم اللذات، فالإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه قال تعالى عنه: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] ، ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦] ،

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩] ، ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ [العلق: ٦-٧] ، ﴿ ابْتِغَاءَ لَطْمِئَاتِكُمْ كَفَّارًا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنتته عليه لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده، فهو الذي حُبب إلى عبده الإيثار وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وهو الذي كتب في قلبه الإيثار وهو الذي ثبت أنبياءه ورسله وأوليائه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء وكان يُرتجز بين يدي النبي ﷺ:

والله لولا الله ما اهتدينا *** ولا تصدقنا ولا صلينا

فهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعمة وأسبابها فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه فكسبه من نعمه فكل نعمة فمن الله وحده حتى الشكر فإنه نعمة وهي منه سبحانه فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته وشكره نعمة منه عليه.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «وَأَمَّا النَّوعُ الثَّانِي: فَالشَّرْكَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ فَإِنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ الخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعْزِزُ الْمُدِلُّ فَمَنْ شَهِدَ أَنَّ الْمُعْطِيَّ أَوْ الْمَانِعَ أَوْ الضَّارَّ أَوْ النَّافِعَ أَوْ الْمُعْزِزَ أَوْ الْمُدِلَّ غَيْرَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِرُبُوبِيَّتِهِ.

وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذَا الشَّرْكِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُعْطِيِّ الْأَوَّلِ مَثَلًا فَيَشْكُرْهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ النِّعَمِ وَيَنْظُرْ إِلَى مَنْ أَسَدَى إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ فَيُكَاْفِتُهُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ ﷻ: «مَنْ أَسَدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَاْفِتُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَاْفِتُونَهُ

فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ»، لِأَنَّ النَّعْمَ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُومُ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا نُنمِّدُ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُعْطِي عَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْزَاقَ وَقَدَّرَهَا وَسَاقَهَا إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَالْمُعْطِي هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ وَحَرَّكَ قَلْبَهُ لِعِطَاءٍ غَيْرِهِ. فَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» (١) أ.هـ.

وقال أيضاً ﷺ: «ثبت عنه في الصحيح: أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد» فهذا حمد وهو شكر الله تعالى، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد.

ثم يقول بعد ذلك: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند»، وهذا تحقيق لوحديته:

لتوحيد الربوبية: خلقا وقدرأ وبداية وهداية، هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

ولتوحيد الإلهية: - شرعا وأمرأ ونهيا - وهو أن العباد وإن كانوا يعطون ملكا وعظمة وبختا ورياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة: «فلا ينفع ذا الجند منك الجند» أي لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه، ولهذا قال: «لا ينفعه منك» ولم يقل: «لا ينفعه عندك» فإنه لو قيل ذلك: أوهم أنه لا يتقرب به إليك لكن قد لا يضره، فيقول صاحب الجند: إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي

(١) أنظر الفتاوى: (١/٩٢).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

كالذين أوتوا النبوة والملك لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء فقد يظن ذو الجذ - الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده - أنه كذلك، فقال: «ولا ينفع ذا الجذ منك». ضمن «ينفع» معنى «ينجي ويخلص» فبين أن جده لا ينجيه من العذاب، بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جده منك، فلا ينجيه ولا يخلصه.

فضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد وتحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ سَتَعِبْتِ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨ - ٩] (١) أ.هـ. فقوله: «لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»: توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يُسأل ويُدعى، ويُتوكل عليه.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، والتحذير من الاستغراق بالملذات.

الفائدة الثانية: التنبيه إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ عَادَاتِ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَعْرِبْتِ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ

(١) أنظر مجموع الفتاوى: (١٧٦-١٧٧).

◆———— القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الشَّيْطَانِ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرْنَا مِثْقَالَ عِلْفِ ذَرَّةٍ ﴿١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

[١٠] باب بيان أنه لا تزكية إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]،
 وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: التوبة: ١١٨]، وقوله تعالى:
 ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ كَانَ يَقُولُ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ اتِّ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَتَّسِعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»^(١).

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «فَأَوَّلُ التَّزْكِي، التَّزْكِي مِنَ الشَّرِكِ كَمَا قَالَ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾  الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧]،

(١) رواه مسلم (٧٠٠٥-٧٠٠٦).

وَقَالَ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والتزكي من الكبائر الذي هو تمام التقوى كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكي بالطهارة وبالصدقة والإحسان كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [١٤] وذكّر أسمر ربه فصلى ﴿[الأعلى: ١٤-١٥]﴾. (١) أ.هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «تزكية النفوس مسلم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعلية وبيانا وإرشادا لا خلقا ولا إلهاما فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ مِنْ رَسُولٍ مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [١٥١] فَادُّرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد فممن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب فالرسل أطباء القلوب

(١) أنظر الفتاوى: (١٩/١٩٩).

فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم والله المستعان»^(١) أ.هـ.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وعن عبد الرحمن بن عجلان قال: «بت عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد»^(٢) أ.هـ.

ويقال: إذا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَنْقُلَ الْعَبْدَ مِنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ أَنْسَهُ بِالْوَحْدَةِ وَأَغْنَاهُ بِالْقَنَاعَةِ وَبَصَرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ، فَمَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ، فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّهُ فَرَقَ بَيْنَ مَطِيعٍ وَفَاسِقٍ، فَكَذَا فَرَقَ بَيْنَ مَطِيعٍ وَمَطِيعٍ، وَلِلتَّفَاضُلِ فِي الْإِطَاعَةِ وَالنِّيَّاتِ تَفَاضُلُ الْمَقَامَاتِ وَالدرجات، وَاللهُ وَلي التَّوْفِيقِ.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلْتُرِيدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٣) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» [النجم: ٢٩-٣٠]، فتجد كثيراً من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يري من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن.

وغاية كثير منهم إذا تعدي ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من العلم، كما يذكر مثل ذلك المتفلسفة والقرامطة مثل

(١) أنظر مدارج السالكين: (٢/ ٣١٥).

(٢) أنظر حلية الأولياء: (٢/ ١١٢).

أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم، فإنهم يتكلمون في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من علم الفلسفة، وما ضموا إليه مما ظنوه من الشريعة، وهم في غاية ما ينتهون إليه دون اليهود والنصارى بكثير، كما بسط في غير هذا الموضع، وقوم من الخائضين في أصول الفقه وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة إذا تكلموا في المناسبة، وأن ترتيب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان أخروية، ودينية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهر من أنواع المعارف بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة»^(١) أ.هـ

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان حقيقة التزكية التي نزلت بها الكتب ودعا إليها الأنبياء والرسل، فأقسم الله ﷻ في كتابه أحد عشر قسماً متواليها على أن صلاح العبد منوط بتزكية نفسه، وخيئته منوط بتدسية نفسه قال تعالى: ﴿وَالسَّمِيسُ وَضَحْنَهَا ١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَعَشَّهَا ٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَيْهَا ٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَغَّهَا ٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠﴾ [الشمس: ١-١٠].

(١) أنظر الفتاوى الكبرى: (٤/٤٦٥).

الفائدة الثانية: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧]، قال ابن كثير رحمته الله: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة» ^(١) أ.هـ.

الفائدة الثالثة: بيان أن كلما زكى العبد نفسه بالتوحيد وطاعة العزيز الحميد كلما سعد، والعكس بالعكس، قال تعالى: ﴿فَأِمَّا يَا نَبِيَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتِنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

الفائدة الرابعة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

الفائدة الخامسة: التنبيه إلى الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» ^(٢)، قال ابن حجر رحمته الله: «ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله» ^(٣) أ.هـ.

الفائدة السادسة: بيان أن من أعظم فرائض الله سبحانه ترك معاصيه التي هي حدوده.

(١) أنظر تفسير ابن كثير: (١٦٤/٧).

(٢) رواه البخاري: (٦١٣٧).

(٣) أنظر فتح الباري: (٣٤٣/١١).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد —————◆

الفائدة السابعة: بيان فساد ما يسميه بعض المعاصرين البرمجة اللغوية العصبية.

[١١] باب بيان أن المغفرة والتوبة لا تُطلب إلا من الله، ولا تكون إلا لله

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ

أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَأَعْمَلُ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ». (١)

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». (٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فَالْعَبْدُ دَائِمًا بَيْنَ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى شُكْرِ وَذَنْبٍ مِنْهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَكُلُّ مَنْ هَدَيْنَ مِنَ الْأُمُورِ اللَّازِمَةَ لِلْعَبْدِ دَائِمًا فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ اللَّهِ وَالْآئِنِ وَلَا يَزَالُ مُحْتَاجًا إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ».

وَلِهَذَا كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم يَسْتَغْفِرُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: «أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ لِيغانَ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً»، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ مِائَةً مَرَّةً».

(١) رواه البخاري: (٧٠٦٨)، ومسلم: (٢٧٥٨).

(٢) رواه البخاري: (٦٣٠٦).

وَهَذَا شَرَعَ الْإِسْتِغْفَارَ فِي خَوَاتِيمِ الْأَعْمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «أَخِيُوا اللَّيْلَ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا
كَانَ وَقْتُ السَّحْرِ أَمُرُوا بِالْإِسْتِغْفَارِ»، وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ
إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ
السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ
مَنْ عَرَفْتِ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ إِلَى قَوْلِهِ:
﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩]، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ
نَبِيَّهُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَأَتَى بِهَا أَمْرَ اللَّهِ بِهِ بِمَا لَمْ
يَصِلْ إِلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ
النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ
كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]، وَهَذَا كَانَ قَوَامَ الدِّينِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ كَمَا
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ نَذِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَاجِسَ
[هود: ١-٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]،
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾
[محمد: ١٩]، وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْتَ النَّاسَ بِالدُّنُوبِ
وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْتِغْفَارِ»، وَقَدْ قَالَ يُونُسُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا
رَكِبَ دَابَّتَهُ يُحَمِّدُ اللَّهَ ثُمَّ يَكْبِرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ظَلَمْتُ
نَفْسِي فَاعْفُرْ لِي»، وَكَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ الَّتِي كَانَ يُخْتِمُ بِهَا الْمَجْلِسَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١) أ.هـ.

وقال أيضاً عليه السلام: «فَصَاحِبُ الْهُوَى الَّذِي اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ فَصَارَ فِيهِ شَرِكٌ مَنَعَهُ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَأَمَّا مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْتِغْفَارَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُ الشَّرُّ» (٢) أ.هـ.

وقال عليه السلام: «فَنَقُولُ: التَّوْبَةُ وَالْإِسْتِغْفَارُ يَكُونُ مِنْ تَرْكِ مَأْمُورٍ وَمِنْ فِعْلِ مَحْظُورٍ؛ فَإِنَّ كِلَاهُمَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَطَايَا وَالذُّنُوبِ.

وَتَرْكُ «الْإِيمَانِ» وَ «التَّوْحِيدِ» وَ «الْفَرَائِضِ» الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ مِنَ الذُّنُوبِ بِلَا رَيْبٍ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ. بَلْ هِيَ أَعْظَمُ الصَّنْفَيْنِ. فَإِنَّ جِنْسَ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ أَعْظَمُ مِنْ جِنْسِ فِعْلِ الْمَحْرَمَاتِ إِذْ قَدْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ تَرْكُ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَمَنْ أَتَى بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ لَمْ يُجَلِّدْ فِي النَّارِ وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ. وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ كَانَ مُجَلِّدًا وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ جِهَةِ الْأَفْعَالِ قَلِيلَةً: كَالزُّهَادِ وَالْعِبَادِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَعِبَادِ مُشْرِكِي الْهِنْدِ وَعِبَادِ النَّصَارَى؛ وَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ وَلَا يَزْنُونَ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ لَكِنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ تَرَكُوهُ» (٣) أ.هـ.

وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيحٍ عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ». (٤)

قال ابن القيم عليه السلام: «والتوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه

(١) أنظر التحفة العراقية: (ص: ٤١).

(٢) أنظر الفتاوى (١٠ / ٢٦٢).

(٣) أنظر الفتاوى (١١ / ٦٧١)، باختصار يسير.

(٤) رواه احمد: (١٥٦٢٥).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك وقد قال الله تعالى وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه» (١) أ.هـ.

وعن ذي النون المصري يقول: «وجدت صخرة بيت المقدس عليها أسطر مكتوبة فجئت بمن ترجمها فإذا عليها مكتوب: كل عاص مستوحش وكل مطيع مستأنس وكل خائف هارب وكل راج طالب وكل قانع غني وكل محب ذليل ففكرت في هذه الأحرف فإذا هي أصول كلها استعبد الله ﷻ به الخلق» (٢) أ.هـ.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

الفائدة الثانية: بيان التلازم بين التوحيد والاستغفار وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

(١) أنظر مدارج السالكين: (١/ ١٧٨).

(٢) أنظر شعب الإيمان: (١/ ٣٨٤).

الفائدة الثالثة: بيان أن التوبة دعوة الرسل عليهم السلام.

الفائدة الرابعة: بيان أن التوبة والاستغفار سبب لحصول الخيرات
ودفع المضار.

الفائدة الخامسة: بيان أنه لا بد وأن يكون العبد مشتغلاً بالتوبة في

كل حين وأوان قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي

أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(١) رواه مسلم: (٧٠٣٤)

[١٢] باب بيان أنه لا يطلب العز إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: «أعداء» (١) أ.هـ.

قال ابن القيم رحمته الله: «أعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد بيت العنكبوت أو هن البيوت.

وبالجملية: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان» (٢) أ.هـ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۗ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) أنظر الدر المشور: (٥ / ٥٣٧).

(٢) أنظر مدارج السالكين: (١ / ٤٥٨).

قال الراغب: «العز حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزاز أي: صلبة»^(١) أ.هـ.

والعزيز الذي يقهر ولا يقهر والعزة يمدح بها تارة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ويذم بها أخرى كعزة الكافرين وذلك أن العزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقية والعزة التي للكافرين هي التعزز وهو في الحقيقة ذل والمراد بها في الآية المشركون المتعززون بعبادة الأصنام والمنافقون المتعززون بالمشركين: ﴿فَاللَّهُ﴾، وحده لا غيره: ﴿الْعِزَّةُ﴾، حال كونها: ﴿جَمِيعًا﴾ أي: عزة الدنيا وعزة الآخرة لا يملك غيره شيئاً منها أي: فليطلبها من عنده تعالى بطاعته وتقواه لا من عند غيره.

وتشير إلى أن الإنسان خلق ذليلاً مهيناً محتاجاً إلى كل شيء ولا يحتاج شيء إلى شيء كاحتياج الإنسان إلى الأشياء كلها ولا يحتاج إلى كل شيء إلا الإنسان والذلة قرين الحاجة فمن ازدادت حاجته ازدادت مذلته: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لعدم احتياجه وكل شيء ذليل له لا احتياجه إليه فكلما كان احتياج الإنسان كاملاً كان ذله كاملاً، وبقدر قطع العبد النظر عن الأشياء وطلب العزة منها تنقص ذلة العبد وتزيد عزته إلى أن لا يبقى له الاحتياج إلى غير الله ولا يزول الاحتياج والافتقار إلى غير الله من القلوب إلا بنفي لا إله وإثبات إلا الله فبكمال النفي تنقطع تعلقاته عن غير الله وبالإثبات يكمل توجهه إلى الله كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

(١) أنظر مفردات ألفاظ القرآن: (٢ / ٩٠).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

فكيف تظفر بالعز وأنت تطلبه في محل الذل ومكانه إذ ذلت نفسك بسؤال الخلق ولو كنت موقفاً لأعززت نفسك بسؤال الحق أو بذكره أو بالرضا لما يرد عليك منه فتكون عزيزاً في كل حال دنيا وآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدِ فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِبِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۗ قَالَ أَتَسْتَبِدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهِيطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبِعَضِّ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وعن سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله - قال: «من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع ولا يجالس ولا يؤاكلة ولا يشاربه ولا يصاحبه ويظهر من نفسه العداوة والبغضاء ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ومن تجب إلى مبتدع لطلب عز في الدنيا أو عرض منها أذله الله بتلك العزة وأفقره الله بذلك الغنى»^(١).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

الفائدة الثانية: بيان أن من أطاع الله أعطاه العزة في الدنيا والآخرة

(١) أنظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: (٢٨ / ٣٥).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورِثُ﴾ [فاطر: ١٠].

الفائدة الثالثة: بيان الإشارة إلى قوله ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

الفائدة الرابعة: بيان التنبيه إلى قوله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ مُمِيلَاتٍ مَائِلَاتٍ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا وَإِنْ رَجَعَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

الفائدة الخامسة: التنبيه إلى افتتان الناس بما يسمى بالموضة.

الفائدة السادسة: بيان التنبيه إلى قوله ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الحَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رِضِي وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ...» الحديث^(٣).

الفائدة السابعة: بيان الإشارة إلى حديث أبي ریحانه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كَفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَكِرْمًا فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ»^(٤).

الفائدة الثامنة: بيان الإشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم بأسرع فيها من حب الشرف والمال في دين المرء المسلم»^(٥).

(١) رواه أبو داود: (٤٠٣١).

(٢) رواه مسلم: (٢١٢٨).

(٣) رواه البخاري: (٢٧٣٠).

(٤) رواه أحمد: (١٦٧٦١).

(٥) رواه الترمذي: (٢٣٧٦)، وأحمد (١٥٨٢٢) من حديث كعب بن مالك، والقضاعي في مسند الشهاب: (٨١١)، من حديث أبي هريرة، والفظ له.

◆ ————— القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

أي: حرص الشخص على المال، وحرصه على الشرف والجاه والمنصب
يفسد دينه كما يفسد الذئبان الجائعان زريبة الغنم إذا نزلوا فيها.

[١٣] باب بيان أن النفع والضر لا يكون إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣]، وقوله ﷺ: ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمَنٌ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَبْلِ هَارُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَنْتَعِمُونَ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فقد بين الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله، فلا رب غيره ولا خالق سواه ولا يملك المخلوق لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا بل الأمر كله لله ليس لأحد سواه منه شيء كما قال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحسنهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال جوابا لمن قال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فالملك كله له والأمر كله له، والحمد كله والخير كله في يديه وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية فلا إله غيره ولا رب سواه: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ بَارِئَةٌ مِنْهُ لَوْلَا أَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفِتْنَةَ لَأَسْرَفُوا وَهُمْ جَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ولا يضر سم ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بأذنه ومشيئته يصيب بذلك من يشاء ويصرفه عن من يشاء، وليس مع العبد من نفسه شيء البتة بل الله واهب الأسباب ومسبباتها وجاعلها أسبابا ومانحها من يشاء ومانعها من يشاء إذا أراد بعبد خيرا وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرغبة إليه فإنهما مادتا التوفيق فبقدر قيام الرغبة والرغبة في القلب يحصل التوفيق. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمَّا أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ

كَعْبِ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ
يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ
النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةَ أَنْقِدِي نَفْسَكَ مِنَ
النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلُهَا بِبِلَالِهَا» (١)

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
[الشعراء: ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ
مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ» (٢)

فالأمر كله لله أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً، هو مقلب القلوب ومصرفها
كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من
دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان الرجوع إلى الله في كل هم ونائبة.

الفائدة الثانية: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَدْمَعُونَ﴾
الْحِينَ قَدْ أَسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ
وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿[الأنعام: ١٢٨].

(١) رواه البخاري (٤٤٩٣)، ومسلم: (٢٠٤)، والفظ له.

(٢) رواه مسلم: (٣٠٤).

الفائدة الثالثة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وأن المعبودين من دون الله الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم، أي إزالة المكروه عنهم، ولا تحويلاً أي تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الجذب ونحو ذلك.

الفائدة الرابعة: بيان أنه لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضره ولا منع نفعه أرادته وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح: ١١].

[١٤] باب بيان أنه لا يتوكل إلا على الله

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]،
وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال: ﴿وَمَنْ
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ
الرَّحْمَنُ أَمَّنَابُهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وقال له ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١]، وقال له ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ الآية [الفرقان: ٥٨]، وقال له ﷺ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أنبيائه ورسله عليهم
السلام: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]،
وقال عن أصحاب نبیه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]،
وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، والقرآن مملوء من ذلك.

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب قَالَ ﷺ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (١).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (٢).

وفي الصحيحين: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ وَبِكَ أَمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تَنْصَلِنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» (٣).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ مرفوعاً: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

وفي السنن عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ

(١) رواه البخاري: (٦١٠٧) ومسلم: (٢٢٠).

(٢) رواه البخاري: (٤٢٨٧).

(٣) رواه البخاري: (٦٩٤٨-٦٩٥٠) ومسلم: (٧٠٧٤) والفظ له.

(٤) رواه الترمذي: (٢٣٤٤) وابن ماجه: (٤١٦٤) وأحمد: (٢٠٥).

حِينَئِذٍ هُدَيْتَ وَكُنَيْتَ وَوُقِّيتَ فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ آخَرَ
كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هَدَيْتَ وَوُقِّيتَ. (١)

التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد ونحو ذلك، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب، أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس.

وأوسع وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في

(١) رواه أبو داود: (٥٠٩٥) والفظ له والترمذي: (٣٤٢٦) والنسائي في الكبرى: (٩٩١٧).

الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم فمن متوكل على الله في حصول الملك ومن متوكل في حصول رغبة ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة وإن كان مسخوطا مبعوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعته، واعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته فإنه يخذل من تلك الجهة وهذا أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء أنه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ولا استنصر بغيره إلا خذل قال تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿يس: ٧٤-٧٥﴾.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن طاعة الله تعالى والتوكل عليه سبب النجاة من المهالك وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

الفائدة الثانية: بيان أن كفاية الله لعبده بحسب توحيده وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَحْمِلُونَ كُلَّ دِينِهِمْ وَأَنْ يَخْفَى مِنْهُ لَنْ يَخْفَى لَهُمْ لَنْ يَحْمِلَهُمْ اللَّهُ لَسَاءُ لِلَّذِينَ يُكْفَىٰ عَنْهُ دِينَهُمْ كَمَا لَمَّ لَهُمْ مِنْهُ خَبَرٌ﴾ [الزمر: ٣٦].

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الفائدة الثالثة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢] ، فالتوكل إنما يكون على الله وحده لا على غيره.

الفائدة الرابعة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

الفائدة الخامسة : بيان أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدَخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧] فجمع بين التسبب في قوله: ﴿لَأَتَدَخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ وبين التوكل على الله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

الفائدة السادسة : بيان الإشارة الى قوله تعالى ﴿ وَهَرَيَّ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ وَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥]

الفائدة السابعة : بيان أن التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفاظ والوقاية من كل سوء وقوله تعالى: ﴿ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤] ﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامَكُرُوا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥]

الفائدة الثامنة : بيان الإشارة الى حديث الاستخارة.

[١٥] باب بيان أنه لا يستعاذ إلا بالله

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فقوله: «أعوذ»: إشارة إلى الحاجة التامة فإنه لولا الاحتياج لما كان في

الاستعاذة فائدة.

وقوله: ﴿بِاللَّهِ﴾: إشارة إلى الغنى التام للحق.

فقول العبد: ﴿أَعُوذُ﴾: إقرار على نفسه بالفقر والحاجة.

وقوله: ﴿بِاللَّهِ﴾: إقرار بأمرين:

أحدهما: بان الله قادر على تحصيل كل الخيرات ودفع كل الآفات.

والثاني: أن غيره غير موصوف بهذه الصفة فلا دافع للحاجات إلا هو ولا معطي للخيرات إلا هو.

فعند مشاهدة هذه الحالة يفر العبد من نفسه ومن كل شيء سوى الحق فيشاهد في هذا الفرار سر قوله تعالى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْعُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ثُمَّ قَالَ: [لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ هَا تُغَاءُ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي

فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي. فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ [(١)] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ». (٢)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». (٣)

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». (٤)

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول للصفة، والثاني لأثرها المترتب عليها.

ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا

(١) رواه البخاري: (٢٩٠٨) ومسلم: (١٨٣١) والفظ له.

(٢) رواه البخاري: (١٤٢) ومسلم: (٣٧٥).

(٣) رواه أبو داود: (٤٦٦).

(٤) رواه مسلم: (٤٨٦).

إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه فأعادي مما أكره وأحذر ومنعه أن يحل بي هو بمشيئتك أيضا فالمحجوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك فعيادي بك منك عيادي بحولك وقوتك وقدرتك ورحمتك وإحسانك، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقتك بل هو منك ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك فأعوذ بك منك ولا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته» (١) أ.هـ

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ مِنَ الْمَغْرَمِ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَّبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ». (٢)

«كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَلِّمُ بِنَيْهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمُعَلِّمُ الْغُلَمَانَ الْكِتَابَةَ وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُمْ دُبْرَ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أُرْدَلِ الْعُمْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ

(١) أنظر مدارج السالكين: (١/ ٢٥٤).

(٢) رواه البخاري: (٧٩٨) ومسلم: (٥٨٩).

الدُّنْيَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» (١).

وَعَنْ مُسْلِمٍ ابْنَ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ كَانَ سَمِعَ وَالِدَهُ يَقُولُ فِي ذُبْرِ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، فَجَعَلْتُ أَدْعُو بِهِنَّ، فَقَالَ: يَا
بُنَيَّ أَنَّى عَلِمْتَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قُلْتُ: يَا أَبَتِ سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِهِنَّ فِي ذُبْرِ
الصَّلَاةِ فَأَخَذْتِهِنَّ عَنكَ، قَالَ: فَالزَّمْهُنَّ يَا بُنَيَّ فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهِنَّ
فِي ذُبْرِ الصَّلَاةِ». (٢)

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ:
اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ
مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ
بِدُنْيِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا
بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ
مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». (٣)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ:
أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا
بَعْدَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ». (٤)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) رواه البخاري: (٢٦٦٧).

(٢) رواه الترمذي: (٣٥٠٣) والنسائي: (٥٤٦٥) وأحمد: (٢٠٤٦٥) والفظ لها وابن حبان في صحيحه: (١٠٢٨).

(٣) رواه البخاري: (٦٣٠٦).

(٤) رواه مسلم: (٢٧٢٣).

مَا لَقَيْتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَعْتَنِي الْبَارِحَةَ قَالَ: أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ». (١)

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُ شَكَأَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأَحَازِرُ». (٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ». (٣)

وَعَنْ سُهَيْلٍ قَالَ: «كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ أَفْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَعِنَّا مِنَ الْفَقْرِ». (٤)

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا

(١) رواه مسلم: (٢٧٠٩).

(٢) رواه مسلم: (٢٢٠٢).

(٣) رواه البخاري: (٥٠١٧).

(٤) رواه مسلم: (٢٧١٣).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ» (١).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن المستعاذ به هو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس.

الفائدة الثانية: بيان أنه لا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعين المستعدين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

الفائدة الثالثة: بيان أنه يستعاذ بالله أو صفة من صفاته.

الفائدة الرابعة: بيان ما يستعاذ منه.

الفائدة الخامسة: بيان الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

(١) رواه مسلم: (١٣٤٢).

[١٦] باب بيان لا يغني إلا الله

وقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢] ، وقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] ، وقوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَأْكَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضِيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] ، وقوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَايَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَأْ كَسِبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجنائفة: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

والغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله إذ لا يلحقه نقض ولا يعتريه عارض ومن عرف أنه الغني استغنى به عن كل شيء ورجع إليه بكل شيء وكان له بالافتقار في كل شيء.

عن وَرَادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ قَالَ أَمَلَىٰ عَلَى الْمُغِيرَةَ بنِ شُعْبَةَ فِي كِتَابٍ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي ذُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَّ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجُدُّ وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا عَنْ الْحَكَمِ بنِ الْقَاسِمِ بنِ مُحَيَّمَةَ عَنْ وَرَادٍ هَذَا وَقَالَ الْحَسَنُ الْجُدُّ غِنَىٰ» (١).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ» (٢).

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلُبِ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا صَفِيَةَ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتَ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» (٣).

(١) رواه البخاري: (٨٠٨) ومسلم: (٥٩٣).

(٢) رواه البخاري: (٦٠٨١) ومسلم: (١٠٥١).

(٣) رواه البخاري: (٢٦٠٢) ومسلم: (٢٠٦).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ثُمَّ قَالَ: [لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يُقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتَكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتَكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيحٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتَكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتَكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتَكَ]». (١)

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله سبحانه يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي عمله». (٢)

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يوشك بالعلم أن يرفع، فرددها ثلاثاً، فقال زياد بن لبيد: يا نبي الله بأبي وأمي وكيف يرفع العلم منا وهذا كتاب الله قد قرأناه ونقرئه ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناءنا أبناءهم؟! فأقبل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ثكلتك أمك يا زياد بن لبيد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة أو ليس هؤلاء اليهود عندهم التوراة والإنجيل فماذا أغنى عنهم». (٣)

(١) رواه البخاري: (٢٩٠٨) ومسلم: (١٨٣١) والفظ له .
 (٢) رواه البيهقي في الشعب: (٦٨١٥) والطبري في تهذيب الآثار: (٨٩٥) وأصله في مسلم: (٢٩٨٥) بلفظ: [أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه].
 (٣) رواه الزوار: (٥٣٩٤).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس واجتنب المحارم تكن من أروع الناس وأد ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس»^(١).

عن وهب بن منبه قال: «رءوس النعم ثلاثة فأولها نعمة الاسلام التي لا تتم نعمه الا بها والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة الا بها والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش الا به»^(٢). أ.هـ

عن أبي قلابة قال: «قيل أي الناس أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى، قال: فأأي الناس أعلم؟ قال: الذي يزداد من علم الناس إلى علمه»^(٣). أ.هـ

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى : بيان أن العبد فقير بذاته محتاج إلى الله الغني بذاته وقوله تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

الفائدة الثانية : بيان أن كمال الغنى به هو كمال عبوديته وحقيقة العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه.

الفائدة الثالثة : بيان الحكمة من خلق الله للغنى والفقير.

الفائدة الرابعة : الإشارة الى قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا

(١) رواه البيهقي في الشعب: (٨٤٧٧) ورواه أبو داود في الزهد: (١٣١).

(٢) أنظر حلية الأولياء: (٤ / ٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٧ / ١٨٣).

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿التوبة: ٣٩﴾

الفائدة الخامسة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] ، فلا حاجة به إلى طاعتهم ومجاهدتهم وإنما أمرهم بها رحمة بهم لينالوا الثواب الجزيل.

الفائدة السادسة : بيان أن نعمة الله على العبد فيما يكره أعظم من نعمته عليه فيما يجب وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

الفائدة السابعة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿أَهْرَيقَسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَبًا وَسُحْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] ، وفيها بيان حقيقة رحمة الله.

الفائدة الثامنة : الإشارة الى قوله تعالى الإشارة الى قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الفائدة التاسعة : الإشارة الى قوله ﷺ «ولا ينفع ذا الجلد منك الجلد»^(١).

(١) رواه البخاري: (٦٢٤١) ومسلم: (٤٧١).

[١٧] باب بيان أنه لا يطلب الشفاء إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ لَمَعَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى.

وعن السدي قال: «الذي لا حول له ولا قوة»^(١) أ.هـ

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، فهو كالتفسير للاستجابة فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ۗ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ [الشعراء: ٨٠].

(١) أنظر تفسير القرطبي: (١٣ / ٢٢٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد يحصل الشفاء بغير الأدوية كالدعاء والرقية وهو أعظم نوعي الدواء حتى قال بقراط: نسبة طبنا إلى طب أرباب الهياكل كنسبة طب العجائز إلى طبنا»^(١).

وَعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَتْ: «كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنْحَنَحَ وَبِزَقَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ، قَالَتْ وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَتَنْحَنَحَ، قَالَتْ: وَعِنْدِي عَجُوزٌ تَرْقِيَنِي مِنَ الْحُمْرَةِ فَأَدْخَلْتَهَا تَحْتَ السَّرِيرِ فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَيَّ جَنِبِي فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا، قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ؟ قَالَتْ: قُلْتُ خَيْطٌ أَرْقِي لِي فِيهِ، قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِ اللَّهِ لَا غِنِيَاءَ عَنِ الشِّرْكِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ لِمَ تَقُولُ هَذَا، وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْدِفُ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانِ الْيَهُودِيِّ يَرْقِيهَا وَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنْتَ، قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَيْتَهَا كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْهَبِ الْبَأْسَ رَبِّ النَّاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»^(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ: «أَذْهَبِ الْبَأْسَ رَبِّ النَّاسِ اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»^(٣).

(١) الفتاوى الكبرى (٣ / ٦).

(٢) رواه أحمد: (٣٦١٥).

(٣) رواه البخاري: (٥٣٥١) ومسلم: (٢١٩١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَيَّ نَفْسِهِ بِالْمَعْوَذَاتِ وَيَنْفُثُ فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا» (١).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى : بيان أن الذي مرض هو الذي يشفي .

الفائدة الثانية : بيان أنه لا ينبغي أن يتوهم أن حصول الشفاء من شرب الدواء فالله فاعل ذلك الشفاء في ذلك الدواء .

الفائدة الثالثة : الإشارة الى حديث « إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها» (٢).

الفائدة الرابعة : بيان أسباب الشفاء الشرعية .

(١) رواه البخاري: (٤٧٢٨) ومسلم: (٢١٩٢).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه: (١٤١٢) والفظ له والطبراني في الكبير: (١٩٢١٠) والبيهقي في الكبرى:

(١٠ / ٥) ورواه البخاري معلقاً: عن ابن مسعود رضي الله عنه بصيغة الجزم في باب شَرَابِ الحُلُوءِ وَالْعَسَلِ.

[١٨] باب بيان أنه لا يطلب الغوث والمدد إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِإِلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ﴾ [يس: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدة.

واعلم: «أَنَّ هَذَا مَقَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَجَمِيعَ الْمَخْلُوقِينَ، وَرَزَقَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ وَيُمِيتُهُمْ، فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْ نَبِيٍِّّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ صَالِحٍ مِنَ الصَّالِحِينَ مَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ غَيْرٌ قَادِرٍ عَلَيْهِ؟ وَيُتْرَكُ الطَّلَبُ لِرَبِّ الْأَرْبَابِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمُعْطِي الْمَانِعِ؟ وَحَسْبُكَ بِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ مَوْعِظَةٍ، فَإِنَّ هَذَا سَيِّدٌ وَلَدِ آدَمَ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِأَنْ يَقُولَ لِعِبَادِهِ: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فَكَيْفَ

يَمْلِكُهُ لغيره؟ وَكَيْفَ يَمْلِكُهُ غَيْرُهُ - مِمَّنْ رُتِبَتْهُ دُونَ رُتْبَتِهِ وَمَنْزِلَتُهُ لَا تَبْلُغُ إِلَى مَنْزِلَتِهِ - لِنَفْسِهِ، فَضلاً عَنِ أَنْ يَمْلِكَهُ لغيره؟

فَيَا عَجَبًا لِقَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى قُبُورِ الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ قَدْ صَارُوا تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَوَائِجِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ! كَيْفَ لَا يَتَقَيِّظُونَ لِمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَلَا يَنْتَبِهُونَ لِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَذْلُولِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَطْلَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ هَوْلَاءِ وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُحَوِّلُونَ بَيْنَهُمْ وَيَبِينِ الرَّجُوعِ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى بَلْ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا؛ فَإِنَّ أَوْلَيْكَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، الضَّارُّ النَّافِعُ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُونَ أَصْنَامَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَمُقَرَّبِينَ لَهُمْ إِلَيْهِ، وَهَوْلَاءِ يَجْعَلُونَ لَهُمْ قُدْرَةً عَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَيُنَادُوهُمْ تَارَةً عَلَى الْإِسْتِقْلَالِ وَتَارَةً مَعَ ذِي الْجَلَالِ وَكَفَاكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ، وَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ، وَمُطَهِّرُ شَرِيْعَتِهِ مِنْ أَوْصَارِ الشَّرِّكَ وَأَدْنَسِ الْكُفْرِ. وَلَقَدْ تَوَسَّلَ الشَّيْطَانُ أَخْزَاهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الدَّرِيْعَةِ إِلَى مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهُ وَيَتَشَلَّجُ بِهِ صَدْرُهُ مِنْ كُفْرٍ كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١) أ.هـ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنِّي تُهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ

(١) أنظر تفسير المنار: (١١) / ٣٢٢.

بِرَبِّهِ، مَا دَأَّ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَن مَنكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِداؤَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وِزَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ. (١)

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ بِهِ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ». (٢)

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن أساس الشرك وقاعدته التي بني عليها هو التعلق بغير الله.

الفائدة الثانية: بيان حكمة الله في إنزال المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

(١) رواه مسلم: (١٧٦٣).

(٢) رواه الترمذي: (٣٥٢٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحاكم في المستدرک: (١٨٧٥) والطبراني في الدعوات الكبير: (١٧٠) والفظ لها.

[١٩] باب بيان أنه لا ينفع سبب إلا بالله

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدَلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشَأَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿الواقعة: ٥٨-٦٤﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿النجم: ٤٢﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿الحديد: ٣﴾. وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿المتحنة: ٣﴾، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿سأرع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴿المؤمنون: ٥٥-٥٦﴾.]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه». وفي الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه دخل على مريض فقال: «كيف تجدك؟»، فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال: «ما اجتمعوا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف».

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨]، فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده.

وقال: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود: «أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب

النبي ﷺ وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].»

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ عَنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] (١) أ.هـ

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَنِيَّةٌ ﴿ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

(١) أنظر الفتاوى الكبرى: (٥/ ٢٣١).

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الفائدة الثانية: بيان الإشارة الى قوله ﷺ: «إِنَّ الرَّقَى وَالْتَّمَامَ وَالتَّوَلَةَ

شُرْكٌ»^(١).

الفائدة الثالثة: بيان أن الموحد يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب

ويرى الوسائط مسخرة لحكمه.

الفائدة الرابعة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُفَّ

كُفْرَهُمْ لَأَكْثُرُنَّ أَكْثَرًا مِّنْ قَبْلِهِمْ ۗ فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَاذْكُرْ أَنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ غَفُورٌ

﴿[آل عمران: ١٥٩].﴾

(١) رواه أبو داود: (٣٨٨٥) وابن ماجه: (٣٥٣٠) وأحمد: (٣٦١٥) وابن حبان في صحيحه: (٦٠٩٠).

[٢٠] باب بيان أنه لا تطمئن القلوب إلا بالله

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَذَّكَّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]:

والاطمئنان: هو السكون، قال الجوهري: اطمأن الرجل اطمئناناً وطمأنينة: أي سكن، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]: وكذلك للقلوب سكونة تناسبها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه، إلا الله سبحانه، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التلذذ أكل الطعام المسموم، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً؛ إذ الله لا سمي له ولا مثل

له؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الإلهية، اعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد قلبه، وروحه، وهى لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذى لا إله إلا هو، فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره، وهى كادحة إليه كَدْحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا فى وقت وفى بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والتدَّ غير منعم له ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده، ويضره ذلك، وأما إلهه فلا بد له منه فى كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا «إبراهيم» الخليل عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ إِلَّا فَلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وكان أعظم آية فى القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. (١) أ.هـ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته بل لا رب إلا الله ولا إله غيره والإله هو المعبود الذى يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم وكل مولود يولد على الفطرة فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس فى محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعموم وملبوس ومنظور وملموس يجد من نفسه وإن قلبه يطلب شيئاً سواه ويجب أمراً غيره يتألمه ويصمد إليه ويطمئن

(١) أنظر مجموع الفتاوى (٧/٥).

إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ولهذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وفي الصحيح عن عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله قال: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا»، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَطَرَأَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْقِيَمُ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وأيضا فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال وكل ما في غيره من محبوب فهو منه صلى الله عليه وسلم فهو المستحق لأن يجب على الحقيقة والكمال» (١) أ.هـ.

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَجِجًا إِلَى جَلْبٍ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعَ مَا يَضُرُّهُ وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةَ مَطْلُوبِهَا لِتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنَّ بِهِ وَكَيَسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِهِ وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ وَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فَكُلُّ مَالٍ سِوَاهُ يَخْضَلُ بِهِ الْفَسَادُ وَلَا يَخْضَلُ صَلاَحُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْقُلُوبُ مُخْلِصَةً لِلَّهِ الدِّينَ: عَبَدَتْ غَيْرَهُ؛ مِنْ الْأَلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِمَّا رَضَوْهُ لِأَنفُسِهِمْ؛ فَأَشْرَكَتْ بِاللَّهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَاسْتَعَانَتْهُ؛ فَتَعْبُدُ غَيْرَهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ لِجَهْلِهَا بِسَعَادَتِهَا الَّتِي تَأْتِيهَا بِعِبَادَةِ

(١) أنظر أمراض القلب وشفائها: (ص: ١٠٤).

خَالِقَهَا وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ؛ فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ وَبِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ تَسْتَغْنِي عَنْ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَبْدُ كَذَلِكَ: كَانَ مُذْنِبًا مُحْتَاجًا وَإِنَّمَا غِنَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَاءٌ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسْئِدِي مَغْفِرَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَى الْعَبْدُ وَيَسْتَغْنِي وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَبِالِاسْتِغْفَارِ يَغْفِرْ لَهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ عَذَابُهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقْتُهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ» (١) أ.هـ.

قال ابن القيم رحمه الله: «فوا أسفاه ووا حسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفذ العمر والقلب محجوب ما شتم لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزا وموته كمدا، ومعادة حسرة وأسفا، اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك.» (٢) أ.هـ.

عن جعفر قال: سمعت مالكا يقول: «قرأت في التوراة ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكيا فاني أنا الله الذي اقتربت لقلبك وبالغيب رأيت نوري قال مالك يعني تلك الرقة وتلك الفتوح الذي يفتح الله لك منه.» (٣)

(١) أنظر مجموع الفتاوى: (١/ ٥٥).

(٢) أنظر طريق الهجرة: (ص: ٣٢٧).

(٣) أنظر حلية الأولياء (٢/ ٣٥٩).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان حقيقة الطمأنينة في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]

الفائدة الثانية: بيان الإشارة الى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

الفائدة الثالثة: بيان الإشارة الى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

الفائدة الرابعة: التنبيه الى إن أكثر أهل النعمة لا يعلمون فتنة النعمة وسوء عاقبتها وببطل النعمة والاعتزاز بها تقسو قلوبهم، وتستولي عليهم الغفلة، وتطمئن نفوسهم بها وتنسى الآخرة والمولى.

[٢١] باب بيان أنه لا تشبث إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وأعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتاً وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم وثبات ثوابه عليهم والمقصود بيان أن الثبات في العقيدة والطاعة يوجب الثبات.

وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فينبغي للمؤمن أن لا يأمن على إيمانه وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبته على الإيمان كما سأل إبراهيم عليه السلام لنفسه ولبنيه الثبات على الإيمان.

وعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ تَبَّتْ قُلُوبُنَا عَلَى دِينِكَ»، قَالَ: «وَالْمِيزَانَ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيُخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

عن أحمد بن عصام بن عبد المجيد يقول: سمعت محسن بن موسى يقول: «كنت عديل سفيان بن الثوري إلى مكة فرأيت يكثر البكاء فقلت له: يا أبا عبد الله بكائك هذا خوفاً من الذنوب؟ قال: فأخذ عوداً من المحمل فرمي به فقال: إن ذنوبي أهون علي من هذا ولكنني أخاف أن أسلب التوحيد»^(٣).

(١) رواه البخاري: (١٣٠٣).

(٢) رواه النسائي: (٧٧٣٨) وابن ماجه: (١٩٩) وأصله في صحيح مسلم: (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان: (٨٦٥).

وَعَنْ حَسَانِ بْنِ عَطِيَّةٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ مُسْلِمَ بْنِ مَشْكَمٍ قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ فَتَزَلْنَا مَرَجَ الصَّفْرِ فَقَالَ: (ائْتُونِي بِالسَّفْرَةِ نَعْبِثُ بِهَا) فَكَانَ الْقَوْمُ يَحْفَظُونَهَا مِنْهُ فَقَالَ: يَا بَنِي أَخِي لَا تَحْفَظُوهَا عَنِّي وَلَكِنْ أَحْفَظُوا مِنِّي مَا سَمِعْتُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اكْتَنَزَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ وَالدِّرَاهِمَ فَاكْتَنَزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحَسْنَ عِبَادَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْبِ»^(١).

عن أحمد بن عصام بن عبد المجيد يقول: سمعت محسن بن موسى يقول: «كنت عديل سفيان بن الثوري إلى مكة فرأيتَه يكثر البكاء فقلت له: يا أبا عبد الله بكاؤك هذا خوفا من الذنوب؟ قال: فأخذ عودا من المحمل فرمي به فقال: إن ذنوبي أهون علي من هذا و لكنني أخاف أن أسلب التوحيد»^(٢).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن العبرة بالخواتيم.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى قوله ﷺ: «يبعث العبد على ما مات عليه»^(٣).

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ

لذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَلَكُمْ﴾ [محمد: ١٩]

(١) رواه أحمد: (١٧١٥٥) وابن حبان في صحيحه: (٩٣٥) وأبو نعيم في الحلية: (٦ / ٧٧).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيثار: (٨٦٥).

(٣) رواه ومسلم: (٢٨٧٨).

الفائدة الرابعة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]

الفائدة الخامسة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]

الفائدة السادسة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّتْ بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]

الفائدة السابعة : بيان الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِجْدَالًا ۗ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]

[٢٢] باب بيان أنه لا صبر إلا بالله

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرِعْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

والصبر في اللغة: الحبس والكف ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: احبس نفسك معهم.

قال ابن القيم رحمته الله: «وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله وصبر لله وصبر مع الله. فالأول: أول الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصبر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

والثاني: الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والإستحجاد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: الصبر مع الله وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية صابرا نفسه معها سائرا بسيرها مقيما بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استقلت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابرا مع الله أي قد جعل نفسه وقفا على أوامره ومحابه وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين»^(١) أ.هـ

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له كما أنه لا جسد لمن لا رأس له وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر»، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «أنه ضياء»، وقال: «من يتصبر يصبره الله»

وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله.

والثاني: صبر عن معصية الله.

والثالث: صبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

(١) أنظر مدارج السالكين: (٢/ ١٥٧).

◆ القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

وفي الصحيح: «عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»، وقال للمرأة السوداء التي كانت تصرع فسألتها: «أن يدعوا لها: «إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقالت: إني أتكشف فادع الله: أن لا أتكشف فدعا لها».

وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر: «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى».

وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره والجزع والتسخط والتشكى يزيد في المصيبة ويذهب الأجر.

وأخبر أن الصبر خير كله فقال: «ما أعطي أحد عطاء خيرا له وأوسع من الصبر»^(١). أهـ

قال ابن القيم رحمته الله: «مراتب الصبر:

إحداها: مرتبة الكمال وهي مرتبة أولي العزائم وهي الصبر لله وبالله

فيكون في صبره مبتغيا وجه الله صابرا به متبرئا من حوله وقوته فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

(١) أنظر مدارج السالكين: (٢ / ٥٥) بتصرف يسير.

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الثانية: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا فهو أحسن المراتب وأردأ الخلق وهو جدير بكل خذلان وبكل حرمان

الثالثة: مرتبة من فيه صبر بالله وهو مستعين متوكل على حوله وقوته متبريء من حوله هو وقوته ولكن صبره ليس لله إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه فهذا ينال مطلوبه ويظفر به ولكن لا عاقبة له وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية فإن صبرهم بالله لا لله ولا في الله ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم وهم من جنس الملوك الظلمة فإن الحال كالمملك يعطاه البر والفاجر والمؤمن والكافر

الرابعة: من فيه صبر لله لكنه ضعيف النصيب من الصبر به والتوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه فهذا له عاقبة حميدة ولكنه ضعيف عاجز مخذول في كثير من مطالبه لضعف نصيبه من: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاحة: ٥]، فنصيبه من الله: أقوى من نصيبه بالله فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابر بالله لا لله: حال الفاجر القوي.

وصابر لله وبالله: حال المؤمن القوي.

والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»^(١) أ.هـ.

وقال زهير بن نعيم رضي الله عنه: «إن هذا الأمر لا يتم إلا بشيئين الصبر واليقين فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتم وإن كان صبر ولم يكن معه يقين

(١) أنظر مدارج السالكين: (٢/ ١٦٩).

لم يتم، وقد ضرب لهما أبو الدرداء مثلاً فقال: مثل اليقين والصبر مثل فدادين يحفران الأرض فإذا جلس واحد جلس الآخر» (١) أ.هـ.

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببليّة ومحنة وجب عليه رعاية أمور فأولها أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وإنما وجب عليه ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق فله أن يفعل في ملكه كما يشاء ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزّه عن فعل الباطل والعبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب وثانيها أنه في ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلاً عن الدعاء كان أفضل لقوله ﷺ حكاية عن رب العزة [من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين]. (٢)

ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك أن الأول أفضل، وثالثها أنه سبحانه إذا أزال عنه تلك البلية فإنه يجب عليه أن يباليغ في الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء.

(١) أنظر حلية الأولياء: (١٠ / ١٤٧).

(٢) رواه الترمذي: (٢٩٢٦) والبيهقي في الشعب: (٥٧٢) والفظ له ويصدقه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالذَّيْبُ آمُومًا يَلْبِطُ وَيَكْفُرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

الفائدة الثانية: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْصَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] ، وقوله ﷺ: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

الفائدة الثالثة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

الفائدة الرابعة: الإشارة الى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء»^(٢).

(١) رواه البخاري: (١٢٤١) ومسلم: (٢٣١٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک: (١٩٩٧).

[٢٣] باب بيان أنه لا توفيق ولا سعادة إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَقْوِمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴾ [هود: ١٠٨]،

فقال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾: فسمى إرادته الإصلاح توفيقا وجعله من الله لا يحصل في وقت إلا بالله، أي بإرادته وهديه، والتوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي طبقا له، ولذلك عرفوه بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

وقال عون بن عبد الله: « فواتح التقوى حسن النية وخواتيمها التوفيق والعبد فيما بين ذلك بين هلكات وشبهات ونفس تحطب على شلوها وعدو مكيد غير غافل ولا عاجز ثم قرأ: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]» (١) أ.هـ.

(١) أنظر حلية الأولياء: (٤/ ٢٥٠).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

وقال ذو النون: «وثلاثة من أعلام التوفيق الوقوع في الأعمال بلا استعداد له والسلامة من الذنب مع الميل وقل الهرب منه واستخراج الدعاء والابتهاج وثلاثة من أعلام السعادة الفقه في الدين والتيسير للعمل والإخلاص في السعي» (١) أ.هـ.

قال محمد القرظي: «إن الله ﷻ ابتدأ خلق إبليس على الكفر وعمل بعمل الملائكة فرده إلى ما ابتدأ خلقه عليه وابدأ خلق السحرة على السعادة وعملوا بعمل السحرة فردهم إلى ما ابتدأ خلقهم عليه من السعادة حتى توفاهم على السعادة» (٢) أ.هـ.

وقال ابن المبارك رحمته الله: «إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا فينبغي علينا أن نكرهها» (٣) أ.هـ.

قال ابن القيم رحمته الله: «وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو أن لا يكللك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه، ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فإن وفقه ففضله ورحمته وإن خذله فبعدله وحكمته وهو المحمود على هذا، وهذا له أتم حمد وأكمل له ولم يمنع العبد شيئاً هو له وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم

(١) أنظر حلية الأولياء: (٩ / ٣٩٣).

(٢) أنظر حلية الأولياء: (٣ / ٢١٧).

(٣) أنظر صفة الصفوة لابن الجوزي: (٤ / ١٤٥).

شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض وأن المسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه فهجيري قلبه، ودأب لسانه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك، ودعواه يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»^(١) أ.هـ

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن مدار السعادة على التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشراك والإصرار على العصيان وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالصَّلَاتُ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

الفائدة الثانية: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

(١) أنظر مدارج السالكين: (١/ ٤١٣).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

الفائدة الرابعة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

الفائدة الخامسة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْزِيلِ رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢].

الفائدة السادسة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ سَعَيْتُمْ لَشِقَى﴾ [الليل: ٤].

الفائدة السابعة: سمعت أبا بكر - رضوان الله عليه - على هذا المنبر يقول: «سمعت رسول الله ﷺ هذا اليوم عام أول يقول ثم استعبر أبو بكر - رضوان الله عليه - فبكى ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لن تؤتوا شيئاً بعد كلمة الإخلاص مثل العافية فسلوا الله العافية)» (١).

الفائدة الثامنة: الإشارة الى قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥].

(١) رواه ابن حبان في صحيحه: (٣ / ٢٣٠).

[٢٤] باب بيان أنه لا عاصم إلا الله

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَّعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ مَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

وَالْعِصْمَةُ: الْوَقَايَةُ وَالْمَنْعُ بِمَا يَكْرَهُهُ الْمُعْصُومُ.

واعلم أنه لا عاصم من الله لا في الدنيا ولا في الآخرة فإن قضاءه محيط

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

بجميع الكائنات وقدره نافذ في كل المحدثات.

وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي وَلَنْ تَفْرَقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» ^(١).

قال قتادة: «ذكر في الآية أمرين يمنعان عن الوقوع في الكفر:

أحدهما: تلاوة كتاب الله.

والثاني: كون الرسول فيهم» ^(٢) أ.هـ.

عن عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن منبه في الطريق فقلت حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي وأوجز؟ قال: أوحى الله إلى داود يا داود أما وعزتي وعظمتي لا يشعر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته فتكيد السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده وأرضخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك» ^(٣) أ.هـ.

(١) رواه البيهقي في الكبرى: (٢٠٨٣٤) والفظ له والبخاري: (٨٩٩٣) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد: (٩٠) وابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة: (٤٤) والحديث مروى بعدة ألفاظ عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم عند الترمذي: (٣٧٨٨) والنسائي في الكبرى: (٨١٤٨) أحمد: (١١١١٩) وغيرهم.

(٢) أنظر تفسير الرازي: (٨/١٤٠).

(٣) أنظر حلية الأولياء: (٤/٢٥).

عن ابن عينة قال: «ذكر لنا عن عون بن عبد الله أنه كان يقول إن من العصمة أن تطلب الشيء من الدنيا ولا تجده.

قال وكان يقول: «إن من أعظم الخير أن ترى ما أوتيت من الإسلام عظيمًا عندما زوى عنك من الدنيا»^(١) أ.هـ.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن العصمة بتوفيق الله وحفظه.

الفائدة الثانية: بيان أن العصمة في التمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن تمسك بهما لم يضل.

الفائدة الثالثة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الفائدة الرابعة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

(١) أنظر حلية الأولياء: (١٠/ ٣٥٠).

[٢٥] باب بيان انه لا خشية إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المالك: ١٢] ، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] ، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّبَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبْتَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِمَاهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

(١) رواه البخاري: (١٣٥٧) ومسلم: (١٠٣١).

وفي رواية: «... ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله». (١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عينان لا تمسهما النار أبدا عين باتت تكلام المسلمين في سبيل الله وعين بكت من خشية الله صلى الله عليه وسلم». (٢)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضا». (٣)

وعن حذيفة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه». (٤)

عن أبي علقمة الليثي قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «إن الفقه ليس بكثرة السرد وسعة الهدر وكثرة الرواية وإنما الفقه خشية الله صلى الله عليه وسلم». (٥)

عن أبي بن كعب، قال: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله تعالى ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبدا. وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن واقشعر جلده من مخافة الله تعالى إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها فهي كذلك إذا أصابها ريح فتحات عنها

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٦٩٣) البزار: (٨١٨٢) والطيالسي في مسنده: (٢٥٨٤).

(٢) رواه الضياء في الأحاديث المختارة: (٢١٩٨) وأبي لعل في مسنده: (٤٣٤٦).

(٣) رواه البيهقي: (٧٤٥) في الشعب والبزار: (٧٢٩٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٢ / ٣٤٣) الطبراني في الكبير: (٦٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) رواه الحاكم في المستدرک: (٧٩٨٨) وصححه وأقره العراقي والقضاعي في مسند الشهاب: (٢٨٢) والفظ لها والطبراني في الكبير: (٧٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) رواه ابن بطة العبكري في إبطال الحيل: (ص: ١٤).

القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

ورقها إلا تحاتت عنه خطاياها كما تحات عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فانظروا أعمالكم، إن كان اقتصادا واجتهادا فلتكن على منهاج سبيل وسنة»^(١).

عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: سمعت كعبا يقول: لان أبكي من خشية الله تعالى حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إلي من أن أتصدق بوزني ذهباً والذي نفس كعب بيده ما من عبد مسلم يبكي من خشية الله حتى تقطر قطرة من دموعه على الأرض فتمسه الناس أبدا حتى يعود قطر السماء الذي وقع إلى الأرض من حيث جاء ولن يعود أبدا»^(٢).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

الفائدة الثانية: بيان أن خير العلم ما كانت الخشية معه وذلك لأن الخشية إنما تنشأ عن العلم بالله فشهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية وشاهد الخشية موافقة الأمر.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

(١) رواه ابن أبي شيبة: (٨ / ٢٩٧) وأبو داود في الزهد: (١ / ٢٠٣) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد: (١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٨ / ٢٩٩).

◆ ————— القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد

اللَّهُ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ [التوبة: ١٨] ، وخص الخشية
والصلاة بالذكر لأنها أصل الأعمال الحسنة الظاهرة والباطنة.

[٢٦] باب بيان أن التحليل والتحريم لا يكونان إلا من الله

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُوكٍ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ

في الآخرة عذاب عظيم ﴿ [المائدة: ٤١].

قال ابن القيم رحمته الله: «أما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريماً، وأعظمها إثماً، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال. فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريماً عارضاً في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به وتغيير دينه وتبديله ونفي ما أثبتته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشدّ إثماً، وهو أصل الشرك والكفر ووعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض وحذروا فتنهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد» ^(١) أ.هـ

(١) أنظر مدارج السالكين: (١/٣٧٢).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أن القول على الله بلا علم أعظم الذنوب بعد الشرك.

الفائدة الثانية: بيان أن التحليل والتحريم من خصائص الله وقوله تعالى:
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَللَّهُ
أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقْتُلُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

الفائدة الثالثة: بيان أعظم أسباب ضلال اليهود والنصارى.

الفائدة الرابعة: الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ
مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

الفائدة الخامسة: بيان أن القول على الله بلا علم سبب لحلول العقوبات
وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

الفائدة السادسة: بيان فساد مقاصد المحرفين للكتاب والسنة وقوله تعالى:
﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

[٢٧] باب بيان أنه لا رجاء إلا بالله

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ». (١)
وَعَنْ أَيْلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(١) رواه مسلم: (٢٨٧٧).

«قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ»^(١).

وعن أبي علي الجورجاني قال: «ثلاثة أشياء من عقد التوحيد الخوف والرجاء والمحبة فزيادة الخوف من كثرة الذنوب لرؤية الوعيد وزيادة الرجاء من اكتساب الخير لرؤية الوعد وزيادة المحبة من كثرة الذكر لرؤية المنة فالخائف لا يستريح من ذكر المحبوب فالخوف نار منور والرجاء نور منور والمحبة نور الأنوار»^(٢) أ.هـ.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ نِعَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ [الحجر: ٤٩-٥٠].

الفائدة الثانية : وقوله تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] .

الفائدة الثالثة : بيان حقيقة الرجاء وهو انتظار الخير وظن حصول ما فيه مسرة.

وقيل الرجاء والطمع توقع محبوب عن إمارة مظنونة أو معلومة كما أن الخوف توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.

الفائدة الرابعة : الإشارة الى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ

(١) رواه أحمد: (١٦٠٥٩) وابن حبان في صحيحه: (٦٣٣) والحاكم: (٧٦٠٣) وأصله في الصحيح.

(٢) أنظر شعب الإيمان: (١/٣٨٠)، وحلية الأولياء: (١٠/٣٥٠).

تَشْكُرُونَ ﴿ [الروم: ٤٦].

الفائدة الخامسة : الإشارة الى قوله تعالى ﴿مَحْبُوبَهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

الخاتمة

الحمد لله في الأولى والآخرة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد:

أعلم رحمك الله أن عبودية القلب هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب،
وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه
لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، فالحرية حرية القلب والعبودية
عبودية القلب، ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات، إلا بأن يكون الله
هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا
يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا
من والاه، ولا يعادي إلا من عاداه، ولا يعطي إلا الله، ولا يمنع إلا الله، فكلما
قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وصار من
صفوة خلقه الذين لا يحاسبهم ولا يعذبهم وفقنا الله لما يحبه ويرضاه وصلى الله
على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

٧ مقدمة
١٠ ١- باب بيان أنه لا إله إلا الله
١٣ الفوائد المستنبطة:
١٥ ٢- باب بيان أنه لا رب إلا الله
١٩ الفوائد المستنبطة:
٢٠ ٣- باب بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله ولا علم إلا بالله
٢٣ الفوائد المستنبطة:
٢٥ ٤- باب بيان أنه لا خالق إلا الله
٢٨ الفوائد المستنبطة:
٢٩ ٥- باب بيان أنه لا تطلب الهداية إلا من الله
٣٢ الفوائد المستنبطة:
٣٤ ٦- باب بيان أنه لا حول ولا قوة إلا الله

- الفوائد المستنبطة: ٣٧
- ٧- باب بيان أنه لا يطلب النصر إلا من الله ٣٨
- الفوائد المستنبطة: ٤١
- ٨- باب بيان أنه لا يطلب الرزق إلا من الله ٤٢
- الفوائد المستنبطة: ٤٧
- ٩- باب بيان أنه لا إنعام إلا من الله فالله ﷻ هُوَ الْمُنفَرِدُ بِالنِّعَمِ ٤٩
- الفوائد المستنبطة: ٥٢
- ١٠- باب بيان أنه لا تزكية إلا من الله ٥٤
- الفوائد المستنبطة: ٥٧
- ١١- باب بيان أن المغفرة والتوبة لا تُطلب إلا من الله، ولا تكون إلا لله ٦٠
- الفوائد المستنبطة: ٦٤
- ١٢- باب بيان أنه لا يطلب العز إلا من الله ٦٦
- الفوائد المستنبطة: ٦٨
- ١٣- باب بيان أن النفع والضر لا يكون إلا من الله ٧١
- الفوائد المستنبطة: ٧٣
- ١٤- باب بيان أنه لا يتوكل إلا على الله ٧٥
- الفوائد المستنبطة: ٧٨
- ١٥- باب بيان أنه لا يستعاذ إلا بالله ٨٠
- الفوائد المستنبطة: ٨٦

- ١٦- باب بيان لا يغني إلا الله ٨٧
- الفوائد المستنبطة: ٩٠
- ١٧- باب بيان أنه لا يطلب الشفاء إلا من الله ٩٢
- الفوائد المستنبطة: ٩٤
- ١٨- باب بيان أنه لا يطلب الغوث والمدد إلا من الله ٩٥
- الفوائد المستنبطة: ٩٧
- ١٩- باب بيان أنه لا ينفع سبب إلا بالله ٩٨
- الفوائد المستنبطة: ١٠٠
- ٢٠- باب بيان أنه لا تطمئن القلوب إلا بالله ١٠٢
- الفوائد المستنبطة: ١٠٦
- ٢١- باب بيان أنه لا تثبت إلا من الله ١٠٧
- الفوائد المستنبطة: ١٠٩
- ٢٢- باب بيان أنه لا صبر إلا بالله ١١١
- الفوائد المستنبطة: ١١٦
- ٢٣- باب بيان أنه لا توفيق ولا سعادة إلا من الله ١١٧
- الفوائد المستنبطة: ١١٩
- ٢٤- باب بيان أنه لا عاصم إلا الله ١٢١
- الفوائد المستنبطة: ١٢٣
- ٢٥- باب بيان انه لا خشية إلا من الله ١٢٤

١٢٦.....	الفوائد المستنبطة:
١٢٨.....	٢٦- باب بيان أن التحليل والتحريم لا يكونان إلا من الله.....
١٣٠.....	الفوائد المستنبطة:
١٣١.....	٢٧- باب بيان أنه لا رجاء إلا بالله.....
١٣٢.....	الفوائد المستنبطة:
١٣٤.....	الخاتمة
١٣٥.....	المحتويات

من إصدارات المشروع

